

كلمة الدكتورة مارغريت تشان، المديرية العامة، أمام جمعية الصحة العالمية السبعين

السيدة الرئيسة، السادة أصحاب المعالي والسعادة، معالي الوزراء، سعادة السفراء، المندوبون الموقرون،
الأصدقاء والزعماء، سيداتي وسادتي،

أود أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى الدول الأعضاء على ما أبدته تجاهي من ثقة عند تعييني مديرة عامة
لمنظمة الصحة العالمية منذ أكثر من عشر سنوات. فقد وعدت بأن أعمل دون كلل أو ملل، وعملت فعلاً دون
كلل أو ملل، ولم أتعب قط من العمل في السراء والضراء.

وعندما توليت منصبتي، وعدت أيضاً أن أتحمّل المسؤولية عن أداء المنظمة. وقد أصدرت في هذا الشهر
تقريراً يبيّن إلى أي مدى تطورت الصحة العمومية أثناء إدارتي للمنظمة في السنوات العشر الأخيرة.

ويعرض التقرير الوقائع ويطرح الاتجاهات، ولا يسعى للترويج لما حققته إدارتي من إنجازات. بل يهدف
إلى تبديد الانتقادات المتكررة بأن المنظمة فقدت أهميتها. والوقائع تبين خلاف ذلك.

ويشمل التقرير بعض الانتكاسات والنجاحات وبعض الأحداث التاريخية. وهو قبل كل شيء إشادة بقوة
الشراكات وقدرة القائمين على الصحة العمومية على الأخذ بحلول وضعت لمشكلة واحدة وتطبيقها على مشاكل
أخرى.

وكمثال على ذلك من جملة أمثلة أخرى، استغرق خفض أسعار علاج فيروس عوز المناعة البشري
بالأدوية المضادة للفيروسات القهقرية ما يقرب من عقد. وعلى العكس من ذلك، وبفضل العمل في أفرقة وبفضل
التعاون، انخفضت أسعار الأدوية الجديدة التي تعالج التهاب الكبد C خلال عامين.

وهذه هي ثقافة التعلم المُسند بالبيّنات التي تؤدي إلى تحسين الكفاءة، وتمنح الجهود الصحية قدرتها
المميزة على الصمود، وتبقينا متفائلين بلا حدود.

نتعثر أحياناً، ولكن أبداً لا نستسلم.

أصحاب المعالي والسعادة، سيداتي وسادتي،

لقد أضحت الأوضاع السياسية والاقتصادية وأنا أتحدث إليكم اليوم أقل تفاؤلاً بكثير عما كانت عليه
حينما تقلدت منصبتي في عام ٢٠٠٧.

كان هذا قبل الأزمة المالية العالمية التي حلت بنا في عام ٢٠٠٨ فحولت الوضع الاقتصادي من الرخاء إلى التشف، بين عشية وضحاها تقريباً، مخلفةً آثارها التي لا تزال نستشعرها على الاقتصاد وميزانيات الصحة.

وكان هذا قبل أن تستشري أعمال الإرهاب الدولي والتطرف العنيف، وقبل أن يندرج تعبير "الكارثة الكبرى" في قاموس المفردات البشرية، وقبل أن تسفر النزاعات المسلحة التي تبدو بلا نهاية عن أكبر نزوح للسكان وفرار للاجئين نشهده منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

وكان هذا قبل أن يضرب التواتر المفزع للهجمات التي تُشن على المرافق الصحية وقوافل المعونة عرض الحائط بالقانون الإنساني الدولي. إننا ندين كل هذه الهجمات التي تتعرض لها مرافق الرعاية الصحية والعاملون بها. فبحسب التقارير التي جمعتها المنظمة، وقع ما يربو على ٣٠٠ هجوم على مرافق الرعاية الصحية في عام ٢٠١٦ في ٢٠ بلداً، وثُقت أغلبها في الجمهورية العربية السورية.

كما أننا نشهد كيف يمكن لعالمٍ حافلٍ بالتهديدات أن يبعث شبح ثنائيات مميتة، مثل التهديدات المزدوجة الناجمة عن الجفاف وعن النزاع المسلح والتي جعلت المجاعة تضرب بأطنابها في بقاعٍ من أفريقيا والشرق الأوسط على نطاق لم نشهده منذ أن تأسست الأمم المتحدة في عام ١٩٤٥.

لقد كان من حسن حظ العالم أن جاءت جائحة الأنفلونزا التي اندلعت عام ٢٠٠٩ على تلك الدرجة المتوسطة. ومن يمن الطالع لعالمنا أن الفيروسات الجديدة التي ظهرت وتسببت في متلازمة الشرق الأوسط التنفسية في عام ٢٠١٢ وحالات الإصابة البشرية بفيروس أنفلونزا الطيور H7N9 في عام ٢٠١٣ لا تنتشر بسهولة من شخصٍ إلى آخر. بيد أن ذلك يمكن أن يحدث، ولا نجرؤ على أن نغفل عن دورنا في حماية الناس.

وقلت حظوظ العالم مع فيروس زيكا، الفاشية التي تواظب المنظمة على رصدتها عن كثب. وتخلّى الحظ عن العالم تماماً في فاشية الإيبولا المندلعة عام ٢٠١٤ والتي عصفت بسكان كل من غينيا وليبيريا وسيراليون. وكانت هذه أول معاناة يشهدها غرب أفريقيا مع فيروس الإيبولا، الفاشية التي أخذت الجميع على حين غرة بما فيهم منظمة الصحة العالمية.

وكان إيقاع المنظمة أبداً من اللازم في إدراك أن ذلك الفيروس، أثناء ظهوره الأول في غرب أفريقيا، سيتصرف على نحو مختلف جداً عن الفاشيات التي اندلعت فيما مضى في وسط أفريقيا، حيث كان الفيروس نادراً ولكنه مألوف وتم التدريب بشكل جيد على تدابير احتوائه.

ولكن المنظمة اتخذت إجراءات تصحيحية سريعة المسار، فوضعت ثلاث فاشيات تحت السيطرة، وأهدت العالم أول لقاح مضاد للإيبولا يمنح حماية كبيرة. حدث هذا في عهدي، وأنا مسؤولة عما أقول بصفة شخصية.

وقد ارتأيت أنه من واجبي كمديرة عامة أن أبذل كل ما أستطيع لضمان عدم حدوث مأساة من هذا الحجم مجدداً. وسيحكم التاريخ على ما إذا كانت برامج الطوارئ الجديدة قد أتاحت للعالم مستوى أقوى من الحماية.

وفي نهاية المطاف، لا بد من تعزيز النظم الصحية التي تتوافر بها القدرات الأساسية التي تنص عليها اللوائح الصحية الدولية (٢٠٠٥) في بلدانكم حتى يتسنى لها الكشف عن الوفيات غير المبررة في وقت مبكر بالشكل الكافي. ولهذا أهمية بالغة في تحسين الأمن الصحي العالمي من أجل حماية ضعفنا المشترك.

في الأسبوع الماضي أكدت جمهورية الكونغو الديمقراطية وقوع فاشية إيبولا جديدة بالقرب من حدودها مع جمهورية أفريقيا الوسطى، وهذه هي ثامن فاشية إيبولا تضرب هذا البلد. وفي آخر فاشية تعرض لها البلد، والتي تزامنت مع حدوث فاشية غرب أفريقيا، نجحت جمهورية الكونغو الديمقراطية في وقف انتقال الفيروس في غضون ستة أسابيع. وعلى الرغم من التحديات اللوجيستية الهائلة، تواصلت المناقشات التي اشتركت فيها جمهورية الكونغو الديمقراطية حول إمكانية استخدام اللقاح الجديد لاستنهاض الاستجابة.

وكان لفاشية الإيبولا في غرب أفريقيا عدة آثار عرضية يمكن الحكم عليها في القريب العاجل. فقد اكتسبت المنظمة إبان الفاشية خبرة عريضة في تيسير البحث والتطوير في مجال المنتجات الطبية الجديدة، بيد أن ضعف التنسيق تسبب في ضياع وقت أكثر من اللازم. ولتسريع وتيرة الأحداث، وضعت المنظمة وشركاؤها مخطط البحث والتطوير في صيغته النهائية في عام ٢٠١٦.

وبفضل وضع نماذج تعاونية وبرتوكولات موحدة للتجارب السريرية ومسارات لتسريع وتيرة الموافقات التنظيمية مقدماً، اختصر المخطط المدة الزمنية اللازمة لاستحداث وتصنيع المنتجات المرشحة من عدة أعوام إلى بضعة شهور.

وقادت مشاورات الخبراء الذين تولوا تصميم المخطط إلى إنشاء الائتلاف المعني بابتكارات التأهب لمواجهة الأوبئة، والذي أعلن عنه في كانون الثاني/يناير ٢٠١٧ بتمويل مبدئي بلغ نحو ٥٠٠ مليون دولار أمريكي.

ويعكف الائتلاف على بناء نظام جديد لاستحداث لقاحات ميسورة التكلفة مضادة للمُمرضات ذات الأولوية التي حددتها منظمة الصحة العالمية، وذلك في انطلاقة نحو الاستجابة للفاشية الحتمية المقبلة.

لقد بات العالم أفضل تأهباً وإن لم يكن بالقدر المنشود تماماً.

أصحاب المعالي والسعادة، سيداتي وسادتي،

لقد برهن على أهمية العمل الذي تضطلع به المنظمة بطرق عدة، بعضها أوضح للعيان من بعضها الآخر.

ويتضح من التسلسل الزمني لأوبئة فيروس العوز المناعي البشري والسل والمalaria وجود صلات مباشرة بين التغييرات التي تدخلها المنظمة على استراتيجياتها التقنية ونقاط التحول في وضع الأمراض.

وكذلك فقد جعلت المنظمة الاكتشافات العلمية أكثر ديمقراطية عن طريق ترجمة النتائج إلى نهج صحة عمومية يثمر في كل مكان، حتى في الأوساط المحدودة الموارد للغاية.

وتتجلى هذه الأهمية عندما تعتمد المنظمة منتجاً طبياً جديداً، ويجد الشركاء سبلاً لتمويل ذلك المنتج، أو تصدر المنظمة ورقة موقف بشأن لقاح جديد.

وكثير من برامج التمنيع الوطنية لا تبدأ العمل بلقاح جديد حتى تصدر المنظمة ختم اعتمادها الرسمي لهذا اللقاح. ويأتي هذا الاعتماد بمثابة إشارة البدء للعمل من جانب التحالف العالمي من أجل اللقاحات والتمنيع لتوسيع نطاق إتاحة اللقاح بشكل كبير.

وأضحى برنامج الاختبار المسبق للصلاحيات الآن متين الرسوخ كآلية تكفل أن تضاهي جودة المنتجات المنخفضة التكلفة غير محددة الملكية ومأمونيتها ونجاعتها نظيرتها في المنتجات الأصلية. فعلى سبيل المثال قامت المنظمة حتى نهاية عام ٢٠١٦ باختبار الصلاحية مسبقاً لما يزيد على ٢٥٠ مستحضراً صيدلانياً تام الصنع لعلاج الاعتلالات المرتبطة بفيروس العوز المناعي البشري. ويوسع هذا من نطاق الأثر المتحقق بفضل وكالات التمويل بشكل واضح، من أمثلة تلك الوكالات الصندوق العالمي.

وكان أشد البراهين سطوعاً على أهمية المنظمة خلال اجتماع الشركاء العالميين بشأن أمراض المناطق المدارية المهملة الذي عُقد الشهر الماضي.

قيّم المشاركون عشر سنوات من التقدم غير المسبوق الذي يبشر بالقضاء على الكثير من هذه الأمراض الممثلة في القدم في المستقبل القريب جداً، واحتفوا بهذه السنين العشر. وهذه واحدة من أكثر الشراكات العالمية فعالية، على قدم المساواة مع دوائر الصناعة، في التاريخ الحديث للصحة العمومية.

لقد تأثر الوضع الجغرافي السياسي في العالم تأثراً محدوداً بحصول قرابة مليار شخص في عام ٢٠١٥ على علاجات مجانية تحميهم من أمراض تصيبهم بالعمى والجذام والتشوه والهزال.

والناس الذين تتم حمايتهم من بين الأشد فقراً في العالم. ولكننا إذا حكمنا من منظور الكم الهائل للغطية الإعلامية التي شملت التسجيل في موسوعة غينيس للأرقام القياسية عن أضخم تبرع بالأدوية، لشكل هذا قصة نجاح يتوق العالم لسماعها.

وينبع جانب آخر للأهمية أقل وضوحاً للعيان من الطريقة التي بنّت بها المنظمة شبكة أمان تحيط بالعالم أجمع في شكل آلاف المختبرات المتخصصة في رصد الممرضات ذات الأولوية وتشخيصها، ومئات المراكز المتعاونة مع المنظمة، وشبكة واسعة من المجالس العلمية والفرق الاستشارية الاستراتيجية. وإنني أتوجه بالشكر للمؤسسات العلمية في بلدانكم على إسهامها في العمل الذي تقوم به المنظمة.

ولا توجد أي وكالة أخرى معنية بالصحة تتمتع بهذه الدرجة من الخبرة التقنية الجاهزة للتطبيق.

أصحاب المعالي والسعادة،

إن القرارات التي تعتمدها تشكّل الوضع الصحي أيضاً، ولاسيما من خلال إبراز أهمية المشكلات المهمة. فعلى سبيل المثال أخرجت خطة العمل الشاملة الخاصة بالصحة النفسية يقيناً قضية الصحة النفسية من الظل الذي توارت خلفه إلى بؤرة الضوء، وكانت هذه الخطة قد اعتمدت في عام ٢٠١٣.

وعلى نفس المنوال، ظهر التهاب الكبد الفيروسي بدءاً من عام ٢٠١٠ كبند مستقل على جدول الأعمال لثلاثة من دورات جمعية الصحة العالمية، مما أسهم بشكل عظيم في إيلاء هذا المرض أولوية على الصعيد الدولي في الوقت الراهن.

ولكن أقوى باعث على العمل ينبع من الالتزام السياسي الرفيع المستوى. حدث هذا في عام ٢٠١١ عندما اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة إعلاناً سياسياً بشأن الأمراض غير السارية، ثم حدث مجدداً في عام ٢٠١٦ عندما أولى إعلان سياسي الاهتمام الكامل إلى ظاهرة مقاومة مضادات الميكروبات.

فقد استجاب كلا الإعلانين السياسيين للأزمة بطرق أطلقت شرارة العمل العاجل الواسع النطاق من أجل إيجاد الحلول.

أصحاب المعالي والسعادة، سيداتي وسادتي،

إنني أعتبر التقرير الخاص بالصحة في العالم لعام ٢٠١٠، بشأن تمويل النظم الصحية: الطريق إلى التغطية الشاملة، أكثر النشريات التي صدرت خلال فترة إدارتي تأثيراً.

ولقد كان التقرير بمثابة شرارة الانطلاق لما يعرف الآن بالاتجاه صوب التغطية الصحية الشاملة، والملمه لقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة لعام ٢٠١٢ والذي مهد الطريق لإدراج التغطية الصحية الشاملة ضمن أهداف التنمية المستدامة. ومن ثم يجب أن نسترشد فيما نقوم به من أعمال في إطار خطة التنمية المستدامة لعام ٢٠٣٠ بخمسة عناصر ألا وهي: الناس، والكوكب، والسلام، والازدهار، والشراكة.

ومن أهم التوصيات التي أطلع إلى تنفيذها أكثر من غيرها تلك التي قدمتها اللجنة المعنية بالقضاء على السمّة في مرحلة الطفولة.

وتعتبر السمّة في مرحلة الطفولة التعبير الأكثر وضوحاً، بل وكما يزعم البعض الأكثر تراجيدية، عن القوى التي تدفع إلى تصاعد الأمراض غير السارية. فهي إشارة تدق ناقوس الخطر إيداناً بأن مشاكل سيئة، في شكل المزيد من أمراض القلب والسرطان والسكري، في طريقها إلينا.

ومن المبادرات التي نرغب جميعاً في نجاحها تلك المبادرات التي تسعى إلى استئصال شلل الأطفال ومرض الدودة الغينية. فالعالم لم يشارف من قبل بهذه الدرجة على استئصال كل منهما. ويجب علينا مواصلة جهودنا لجعل الاستئصال حقيقة واقعة.

ولقد كان ارتفاع الأمراض غير السارية المزمنة هو الاتجاه الذي أثر بعمق على إعادة صياغة طريقة التفكير في الصحة العمومية. فهذا التحول في عبء المرض يستلزم الخروج من بوتقة النموذج الطبي الحيوي للصحة والذي يركز على علاج الأمراض، إلى نهج أرحب بكثير يعتمد على الوقاية.

وإنني أعتبر "كل امرأة وكل طفل" الاستراتيجية الأكثر تغييراً لقواعد اللعبة خلال فترة إدارتي.

وأدي اعتماد الأمم المتحدة لها في عام ٢٠١٠ إلى الحصول على دعم مالي بمليارات الدولارات، وإلى إطلاق عدد من المبادرات التي تهدف إلى تنفيذ توصياتها. والتالي انخفضت وفيات الأمهات والأطفال بشكل كبير.

ولقد أضافت لجنة منظمة الصحة العالمية المعنية بالمعلومات والمساءلة عن صحة المرأة والطفل الكثير لتقافة القياس والمساءلة. وكما هو مبين في تقرير الإحصاءات الصحية في العالم لهذا العام، فإن ما يقرب من نصف إجمالي الوفيات في جميع أنحاء العالم لديها الآن سبب مسجل. وهو ما يمثل تقدماً كبيراً. وإنني أتوجه بالشكر إلى جميع البلدان التي بذلت جهداً خاصاً في هذا الصدد.

والحاصل أن المسألة الأكثر إثارة للجدل هي الحصول على الأدوية، ولاسيما عندما يُنظر إلى الملكية الفكرية ونظام البراءات باعتبارهما حجر عثرة يقف أمام الأسعار الميسورة واستحداث منتجات جديدة للأمراض الفقراء.

وكانت المفاوضات التي أسفرت عن إنشاء إطار التأهب للأنفلونزا الجائحة، على أقل تقدير، مفاوضات شديدة المراس وإن كُلت بالنجاح في نهاية المطاف، وكذلك تلك التي أدت إلى الاستراتيجية وخطة العمل العالميتين بشأن الصحة العمومية والابتكار والملكية الفكرية.

ومما يتلج الصدر مساهمة عدة مبادرات جديدة وشراكات بين القطاعين العام والخاص في تحقيق الهدفين معاً. ومن الأمثلة على ذلك الشراكة العالمية الجديدة في مجال البحث والتطوير للمضادات الحيوية، التي أطلقتها منظمة الصحة العالمية ومبادرة أدوية الأمراض المهملة في العام الماضي.

وهي مبادرة للبحث والتطوير المدفوعين بالاحتياجات والتي كانت تركز في بادئ الأمر على استحداث المضادات الحيوية الجديدة لعلاج الإنتان والأمراض المنقولة جنسياً ولاسيما مرض السيلان. وتهدف الشراكة إلى تعزيز الحصول على الأدوية وضمان الأسعار الميسورة لها.

وفي مطلع هذا الشهر، أعلنت منظمة الصحة العالمية عن إطلاق مشروع ارتيادي للتأهيل المسبق للأدوية المماثلة بيولوجياً، وهي خطوة نحو توفير مختلف أنواع علاج السرطان باهظة الثمن على نطاق أوسع.

وتعمل المنظمة كذلك مع الشركاء على وضع نموذج للتسعير العادل للمستحضرات الصيدلانية. والأساس المنطقي لذلك واضح للعيان: التغطية الصحية الشاملة تعتمد على الأدوية الميسورة التكلفة. ولا يمكن لأي بلد على هذا الكوكب أن يأمل في إيجاد طريقة للتغلب على جميع الأمراض التي تؤثر على سكانه.

أصحاب المعالي والسعادة، سيداتي وسادتي،

اسمحوا لي أن أختتم كلمتي ببعض النصائح الموجزة التي قد ترغبون في النظر إليها بعين الاعتبار بينما تواصلون تشكيل مستقبل هذه المنظمة.

تسعى المنظمة إلى تجسيد الإنصاف. فمواصلة العمل على تقليص الجور هو مبدأ أخلاقي يوجه عملها.

وما يمكن قياسه يمكن تحقيقه. فلتواصلوا العمل على تعزيز نظم التسجيل المدني والإحصاءات الحيوية، وواصلوا العمل على جعل أطر المساءلة جزءاً لا يتجزأ من الاستراتيجيات الصحية العالمية.

ولا مرأى في أن البيانات العلمية هي حجر الأساس للسياسات. فاحرصوا على حمايتها. ولا يعلم أحد ما إذا كانت البيانات ستحتفظ بقدرتها على الإقناع في ما يصفه كثيرون الآن بعالم ما بعد الحقيقة.

ويمثل رفض اللقاحات سبباً واحداً على الأقل لعدم إعمال اللقاحات لكامل إمكاناتها الهائلة. ولم يكن لفاشيات الحصبة الحالية أن تتدلع في أوروبا وأمريكا الشمالية.

ادفعوا إلى الابتكار دفعاً. فتحقيق الغايات الصحية الطموحة الواردة في أهداف التنمية المستدامة يعتمد على الابتكار. وقد يتسم الابتكار الذي يعتمد على التجارب القطرية بالاقتصاد والتحويل. فعلى سبيل المثال، أدت شراكة البحث والتطوير التي وفرت لأفريقيا لقاح التهاب السحايا "ألف" إلى تحويل حياة الملايين من الناس.

احرصوا على حماية نزاهة المنظمة في جميع المشاركات مع أصحاب المصلحة. ويعد إطار المشاركة مع الجهات الفاعلة غير الدول أداة رئيسية للقيام بذلك. وتحذو العديد من وكالات الأمم المتحدة حذو المنظمة في قيادتها لهذا الإطار.

وبينما تمثل وزارات الصحة شركاء المنظمة الرئيسيين، تتطلب المحددات المتعددة للصحة المشاركة مع قطاعات بخلاف قطاع الصحة والمجتمعات المحلية والشركاء والشركات التجارية ومنظمات المجتمع المدني.

اصغوا إلى المجتمع المدني. فمنظمات المجتمع المدني هي ضمير المجتمع. وهي أفضل من يجعل الحكومات والشركات التجارية، من قبيل صناعات التبغ والغذاء والكحول، محلاً للمساءلة. وهي التي يمكنها أن تمنح أكثر الناس معاناة شكلاً وصوتاً.

وقبل كل شيء، تذكروا الناس. ف وراء كل رقم شخص وهو الذي يحدد إنسانيتنا المشتركة ويستحق تعاطفنا، وخاصة في حالة المعاناة التي يمكن منعها أو الوفيات المبكرة التي يمكن الوقاية منها.

أصحاب المعالي والسعادة، سيداتي وسادتي،

هذه هي آخر مرة أتحدث فيها إلى جمعية الصحة العالمية. ولا يسعني إلا أن أتوجه بالشكر إلى الدول الأعضاء على ما أولته لي من امتياز وشرف خدمة هذه المنظمة. ولطالما فعلت ذلك بتواضع، وإن كان يحذوني شعور كبير بالفخر.

وإنني أود أن أشكر المديرين الإقليميين على مشورتهم الحكيمة ودعمهم لإصلاح المنظمة، وموظفينا الرائعين في المقر الرئيسي، وفي المكاتب الإقليمية، وفي البلدان، حيث يكون لعملنا أكبر الأثر.

وأخيراً وليس آخراً، أود أن أشكر زوجي ديفيد وعائلتي على ما منحوني إياه من حب ودعم. ديفيد، شكراً لك على الإصغاء.

وشكراً لكم.

= = =